ابنُ ماجِدٍ النَّجديُّ
أَسَدُ البِحارِ، وشاعرُ القِبلتَينِ
(838 ـ 910هـ)

أَعزَّائي وأَحبَّائي:

ابنُ ماجِدٍ، أَسدُ البِحارِ، وشاعرُ القِبلتينِ، كَما قالَ عَنْ نَفسِهِ ـ اشْتُهرَ في القرونِ الوسطَى بِمُكتَشِفِ طَريقِ الهندِ عَبرَ البِحارِ، وإِليهِ يُعزَى اختراعُ البُوصَلَةِ المِغناطيسيَّةِ الَّتِي تُرشِدُ السُّفنَ في الطُّرقِ البَحريَّةِ في أَعالي البِحارِ، كَما قامَ بِوضعِ العَديدِ مِنَ المُصَنَّفاتِ في عِلمِ المِلاحَةِ البَحريَّةِ الَّتِي اعتُبِرَتْ مِنْ أَهمِّ المَراجعِ العِلميَّةِ لأُصولِ عِلمِ جغرافيا الملاحَةِ البَحريَّةِ في العالَمِ أَجمَعَ.

فَفيها مَباحثُ عَنْ تاريخِ المِلاحَةِ وحَركَةِ القَمَرِ ومَهبِّ الرِّياحِ وتحَديدِ الوجْهاتِ للمُسافِرينَ ومَطالِعِ النُّجومِ ومَواسِمِ الرِّياحِ والمدِّ والجَزرِ. وهو من حَدَّدَ المَسافاتِ بينَ كثير مِنْ مُدنِ العَالم القَديم، ولِهَذا اعتُبِرَ ابنُ ماجِدٍ أسدَ البَحرِ وأمهرَ المَلَّاحينَ في زَمانِهِ قَاطبَةً.

كانَ أَوَّلَ مَنْ وضَعَ كُتُباً ومُصَنَّفاتٍ تَحدَّثَ فيها عَنِ الصِّفاتِ الَّتِي يَنبغي تَوَفرُها في الرُّبانِ البَحريِّ، والسُّلوكِ الَّذِي يَجبُ عَليهِ اتِّباعُهُ، كَما أَلَّفَ الأَراجيزَ الشِّعريَّةَ الَّتِي صاغَ

فيها قَواعِدَ عِلمِ المِلاحَةِ البَحريَّةِ، والصِّفاتِ النَّفسيَّةِ والأَخلاقيَّةِ لِمَنْ يَعمَلُ في البِحارِ، بِإسلوبٍ أَدَبيٍّ بَليغٍ وأَلفاظٍ جَزلَةٍ، يُحاكي فيها الطَّبيعَةَ والإِنسانَ، فَقَدْ كانَ مِنَ الشُّعراءِ المَوهوبينَ والمَرموقينَ الَّذِينَ خَلَّدَتْ لَهُمْ مُصَنَّفاتُ الشِّعرِ والشُّعراءِ القَصائِدَ والأَشعارَ الَّتِي تضَعُهُ في مُقَدِّمَةِ شُعراءِ عَصرِهِ.

ولَقَدْ أَشادَ بِعلمِهِ الجَمِّ، وفكرِهِ المَوسوعيِّ، وإِبداعِهِ الكَبيرِ، كَثيرٌ مِنَ العُلماءِ والدَّارسينَ والبَحَّاثةِ الأَوربيينَ في العَصرِ الحَديثِ، واعتَبروهُ واضِعَ اللَّبِناتِ الأُولى لِعلمِ المِلاحَةِ البَحريَّةِ، وأَشادوا بِفَضلِهِ العَظيمِ عَلى الفِكرِ الإِنسانيِّ، وعَلى الحَضارَةِ الأَوربيَّةِ، وخاصَّةً أَنَّهُ قادَ أَوَّلَ سَفينَةٍ أوربيَّةٍ لأَحدِ البَحارَةِ البُرتُغاليينَ مِنْ سَواحِلِ إِفريقيَةَ الشَّرقيَّةِ إِلى سَواحِلِ الهندِ الغَربيَّةِ، وعَرَّفَ البَحارَةَ الأوربيينَ عَلى طَريقِ الهندِ والصينِ وأَندونيسيا واليابانِ وغَيرِهِمْ مِنَ البُلدانِ الواقِعَةِ عَلى هَذا الطَّريقِ البَحريِّ.

فَمَنْ هُوَ ابنُ ماجدٍ؟

❁ ❁ ❁

هوَ شهابُ الدِّينِ أَحمدُ بنُ ماجدٍ بنِ عَمرَ بنِ فَضلٍ بنِ دويكٍ بنِ يوسُفَ بنِ حسينِ بنِ أَبي مَعلق السَّعديُّ بنِ أَبي الرَّكائِبِ النَّجديُّ.

ولِدَ سنةَ (838) هجريَّةً في مَدينَةِ جلفارَ الواقِعَةِ عَلى سواحلِ عُمانَ في شِبهِ الجَزيرَةِ العَربيَّةِ.

وهوَ يَنحَدرُ مِنْ أُسرَةٍ رَبابِنَةٍ، تَوارَثَ رُكوبَ البَحرِ والعَملَ فيهِ أَباً عَنْ جدٍّ، فَقَدْ كانَ أَبوهُ رُبّاناً يُلَقَّبُ بِرُبَّانِ البرَّينِ (بَرِّ العَربِ وبَرِّ العَجَمِ) كَما أَنَّ جدَّهُ كانَ مَلّاحاً مَشهوراً.

ومُنذُ نَشْأَتِهِ الأُولَى وجَدَ في نَفسِهِ مَيلاً نَحوَ السَّفَرِ في البَحرِ، فَتَنَقَّلَ بينَ عِدَّةِ مُدُنٍ بَحريَّةٍ عَلى السَّاحِلِ العُمانيِّ، وتَيَسَّرَ لَهُ الاطِّلاعُ عَلى مُؤلَّفاتٍ قَديمَةٍ في كافَّةِ العُلومِ، واشْتَغَلَ مُنذُ نُعومَةِ أَظفارِهِ بِقَرضِ الشِّعرِ ونَظمِهِ، وخاضَ عالَمَ البِحارِ، وانشَغَلَ فَترَةً في القِياساتِ الفَلَكيَّةِ، وعِلمِ النُّجومِ.

عِندَ نُضوجِهِ الفِكري والعَقلي تَوَسَّعَتْ مَعارفُهُ، فَاطَّلَعَ عَلى عُلومِ عَصرِهِ، وقَرأَ العَديدَ مِنَ الكُتُبِ في عُلومٍ مُختَلِفَةٍ، وبِشَكلٍ خاصٍّ فيما يَتَعَلَّقُ بِالجُغرافيةِ الفَلَكيَّةِ والرِّياضيَّةِ.

ثُمَّ بَدأَ رِحلَتَهُ البَحريَّةَ العالميَّةَ، وسافَرَ إِلى أَكثَرَ مَنْ بَلَدٍ واطَّلَعَ عَلى شُعوبِها وعاداتِها وتَقاليدِها، وتَعَلَّمَ لُغاتِها، فَكانَ عارِفاً بِاللُّغَةِ السَنسكريتيَّةِ، ولُغَةِ جاوَةَ والزِّنجِ والفارسيَّةِ، إِضافَةً إِلى ضُلوعِهِ في عُلومِ اللُّغَةِ العَربيَّةِ.

ورُبَّما هَذا الأَمرُ جَعَلَهُ يَثِقُ في نَفسِهِ كَثيراً وثوقَ العالِمِ الَّذِي لا يُضاهيه أَو يُجاريهِ أَحدٌ في رُكوبِ البَحرِ ومَعرِفَةِ قَواعِدِ المِلاحَةِ البَحريَّةِ، ولِهذا كانَ يَعتَبِرُ نَفسَهُ رابِعَ اللُّيوثِ (المعالمَةِ البَحريَّةِ) الَّذِينَ عُرِفوا قَديماً في سَواحِلِ الجَزيرَةِ العَربيَّةِ والخَليجِ العَربيِّ وهُمْ: مُحَمَّدُ بنُ شَذانَ، وسَهلُ بنُ أَبانَ، ولَيثُ بنُ كَهلانَ.

وها هوَ ذا يَقولُ مُعتَداً بِنَفسِهِ في أُرجوزَتِهِ الميميَّةِ:

وأَلقوا سِلاحَ الجهلِ لَمَّا تحققوا مَقالي في عُربٍ وعَجَمٍ ودَيلَمِ

بِـقَـولـي رابِـعٌ لِـثـلاثَـةٍ فَـحَـقٌّ لِـحُـسَّـادي تَـمـوتُ وتَـغـتَـمُ
بَـوادرُ عِـلـمِ الـبَـحـرِ عَـنـي تَـفَـرَّعَـتْ وخَيرُ صِفاتِ البَحرِ تَصدرُ عَنْ فَمي

❋ ❋ ❋

في قَصيدتِهِ «ضَريبَةِ الضَرائِبِ» يُنبِئُ ابنُ ماجِدٍ ما سَيكونُ ذِكرُهُ في المُستَقبلِ عَبرَ الأَجيالِ الآتيَةِ على مَرِّ العُصورِ والأَزمانِ فَيقولُ:

فإنْ تَجهَلوا قَدرَ حَياتي فَإِنَّما سَيَأْتي رِجالٌ بَعدَكُمْ يَعرفوا قَدري

ورُبَّما قالَ ابنُ ماجِدٍ هَذا الكَلامَ مِنْ بابِ مَدحِ العِلمِ الَّذِي سَيُعلي ذِكرَهُ بينَ النَّاسِ، ولَيسَ مِنْ بابِ التَّفاخرِ أَو التَّباهي أَو الغُرورِ بِالنَّفسِ.

وفِعلاً، ما جَهلَهُ البَعضُ مِنَ العِلمِ الَّذِي حَصَّلَهُ ابنُ ماجدٍ في حَياتِهِ، أَتَى مِنْ بَعدِهِ مَن اعتَرفَ بَقدرِهِ العلميِّ، وشَهدَ لَهُ بيدِ السَّبقِ في إِرساءِ قَواعدِ عِلمِ المِلاحَةِ البَحريَّةِ، وإِرشادِ الإِنسانيَّةِ إِلى فَنِّ خَوضِ عالمِ البِحارِ، وركوبِ عبابِهِ.

فَقدْ أَشارَ الباحِثُ الأُوربيُّ «جيمسُ بنُ نَسيبٍ» إِلى أَنَّ ذِكرى ابن ماجدٍ، ما زالَتْ حَيَّةً في الهِندِ وفي جُزُرِ المالديفِ في النِّصفِ الأَوَّلِ مِنَ القرنِ التَّاسع عَشَر، وهُمْ يَعتَمدونَ عَلى القَواعدِ الَّتِي وضَعَها في عِلمِ الملاحَةِ.

ويُشيرُ الأُستاذُ «فيرانُ» بَعدَ ذِكرِهِ كُتُبَ ابن ماجدٍ أَنَّها تَشملُ عَلى مَعلوماتٍ كَثيرَةٍ نَظَريَّةٍ وعِلميَّةٍ في عِلمِ المِلاحَةِ، وهيَ خُلاصَةُ تَجاربِ ابنِ ماجدٍ الشَّخصيَّةِ، وعَلى هذا يُمكِنُنا أَنْ نَنظُرَ إِليهِ كَأَساسٍ لِعلمِ المِلاحَةِ في السِّنين الأَخيرَةِ مِنَ القُرونِ الوسطَى.

ويُعَدُّ ابنُ ماجدٍ الأَوَّلَ بينَ مُؤَلفي عِلمِ المِلاحَةِ مِنَ الأُوربيينَ، أَمَّا المَعلوماتُ عَنْ رِياحِ بِحارِ الهندِ والرِّياحِ المَحليَّةِ والطُّرقِ، وخُطوطِ الطُّولِ لِمرافئ المُحيطِ الهنديِّ كُلِّهِ فَهيَ مُتقَنَةٌ ومُفَصَّلَةٌ.

ووردَ ذِكرُ ابنِ ماجدٍ في كِتابِ «المُحيطِ» لِلأَميرالِ التُّركيِّ «سيدي عَليِّ بنِ حُسينٍ» حينَ ذَكَرَ رِحلَتَهُ إِلى المُحيطِ الهنديِّ في عام (1544) ميلاديَّةً، وقَدْ خَصَّهُ في كِتابِهِ بِإِطراءٍ ومَديحٍ وسَمَّاهُ: «الباحِثَ عَنِ الحَقيقَةِ بينَ البَحارينَ».

ورَوى البحَّارُ البُرتُغاليُّ «فاسكو دي جاما» مُرافَقَةَ ابنِ ماجدٍ لَهُ في إِحدى سَفراتِهِ، وكانَ يُسميه «كان يا ما كانَ»، ويُؤكدُ المُؤرخُ «قطبُ الدِّينِ النَهرواني» في مَخطوطِهِ: «البَرقِ اليَمانيِّ في الفِخِّ العَثمانيِّ» أنَّ هَذا الرُّبانَ هو «أَحمدُ بنُ ماجِدٍ».

فَقدْ قادَ ابنُ ماجدٍ سَفينَةَ الرُّبانِ البُرتُغاليِّ «فاسكو دي جاما» مِنْ مَدينَةِ «ماليندي» في الساحِلِ الشَّرقيِّ لإِفريقية، إِلى مَدينَةِ «كلكتا» عَلى السَّاحِلِ الغَربيِّ لِلهندِ، وكانَ دي جاما أَوَّلَ بَحارٍ أَوربيٍّ يَعبرُ مِنْ طَريقِ رأسِ الرَّجاءِ الصالِحِ إِلى الهندِ في بِدايَةِ القُرونِ الوسطى.

❋ ❋ ❋

يَذكُرُ لَنا ابن ماجدٍ في بَعضِ ما يَذكرُ في أحدِ كُتُبِهِ أَنَّهُ استفادَ كَثيراً مِنَ الأَراجيزِ الَّتي وضَعَها جَدُّهُ وأَبوهُ في معرفَةِ القياساتِ، وأَسماءِ الأَماكِنِ، وصِفاتِ الأنهارِ والبِحارِ، حَيثُ قامَ بِحفظِها، كَما يُشيرُ إِلى أَنَّهُ درسَ كِتابَ المَجسطي لِبَطليموس، وهو كِتابٌ يوناني

قَديمٌ في القِياساتِ الجغرافيَّةِ كانَ قَدْ عَرَّبَ مِنهُ بَعضَ أَجزائِهِ المَأمونُ بنُ هارون، كما قَرأَ كُتُباً أُخرى لِلعلماءِ العَربِ الَّذِينَ كانوا قَبلهُ في علمِ الفَلكِ والرِّياضياتِ.

وهَذهِ القِراءاتُ والمعرِفَةُ الَّتِي اكتَسَبَها هي الَّتِي مَكَّنَتهُ مِنَ السَّفرِ ورُكوبِ البَحرِ إلى الهندِ وما جاورَها مِنْ بُلدانٍ، وفي تَحديد القياساتِ البَحريَّةِ والزَّمنيَّةِ لِمواقِعِ المُدنِ والبُلدانِ السَّاحليةِ الَّتِي مرَّ بِها بِالنِّسبَةِ لِدَرجاتِ الطُّولِ والعرضِ، وتَحديدِ المَسالِكِ والطُّرقِ البَحريَّةِ لِلملاحينَ ولِلذينَ يَخوضونَ عالمَ البِحارِ، ومِنْ ثمَّ إلى اختراعِ البُوصلَةِ المِغناطيسيَّةِ الَّتِي تُمَكِّنُ السُفنَ مِنْ تَحديدِ وجهَتِها ومَعرفَةِ الاتجاهاتِ الأَربَعةِ، ولا يَخفَى اليَومَ ما لِهذِهِ البُوصلَةِ مِنْ أَثرٍ في المِلاحَةِ البَحريَّةِ والجويَّةِ والبَريَّةِ.

ويَقولُ ابنُ ماجدٍ مُشيراً إلى ابتكارِهِ لِلبُوصلَةِ: «ومِن اختراعِنا في عِلمِ البِحارِ تَركيبُ المغناطيسِ عَلى الحَكِّ بِنَفسِهِ، ولَنا فيهِ حكمَةٌ كبيرَةٌ لَمْ تُودَعْ في كتابٍ».

كَما أَشارَ في مُؤلفاتِهِ إلى حَقائِقَ وفوائِدَ لَمْ يَتوصَّلْ إليها العُلماءُ قَبلَهُ، ومِنْ ذَلِكَ ما ذَكرَهُ في كِتابِهِ الشَّهيرِ الَّذِي يَعودُ تاريخُهُ إلى عامِ (1498) ميلاديَةً، فَقَدْ أَورَدَ اثنَتي عَشرَةَ فائِدَةً هي: الإِبرَةُ المِغناطيسيَّةُ، مَنازِلُ القَمَرِ الثَمانيَةُ والعشرونَ، النُّجومُ الَّتِي تُقابِلُ الاثنينِ والثَّلاثينَ للإِبرَةِ الحَكِّ، الطُرقُ البَحريَّةُ في المُحيطِ الهندي، خُطوطُ عَرضِ بَعضِ المَرافِئِ في هَذا البَحرِ، بَحرُ العينِ الغَربي، العَلاماتُ والإِشاراتُ في البِحارِ، سَواحلُ الهندِ الغَربيَّةِ، الجُزُرُ العَشرُ الكُبرَى: جَزيرَةُ العَربِ، جَزيرَةُ القَمرِ، مَدغَشقَر، الغَور

أوفورموزا، سوقطَرةُ، سيلانُ، زُنجبارُ، البَحرينُ، الرِّياحُ المَوسميَّةُ ومُلاءَمَتُها لِلسَّفَرِ مَعَ تَواريخِها وفقاً لِحسابِ الفُرسِ، وصفُ البَحرِ الأَحمَرِ وبَعضُ الأَساطيلِ البَحريَّةِ.

ومِنْ خِلالِ هَذا الكلامِ نُدرِكُ ثَقافَةَ ابنِ ماجدٍ المُوسوعيَّةَ في عِلمِ البِحارِ، حَيثُ إنَّ الأَماكِنَ الَّتِي عَدَّدها كُلَّها قَدْ عايَنَها وشاهَدها وأَبحَرَ إِليها واطَّلعَ عَلى مَوانِئِها وسَواحِلِها وعَرَفَ شُعوبَها وسُكانَها.

❁ ❁ ❁

ابنُ ماجدٍ ـ كَغيرِهِ مِنْ عُلماءِ العَربِ المُسلمينَ ـ يَحرصُ كُلَّ الحرصِ عَلى مَرضاةِ رَبِّهِ ﷻ، وعَلى إِفادَةِ النَّاسِ مِنْ عِلمِهِ ومَعرفَتِهِ، وعَلى اكتسابِ المَعرفَةِ النَّافِعَةِ أَينما كانَ مَصدرُها عَملاً بِقولِ الرَّسولِ الأَعظَمِ ﷺ: «**الحِكمَةُ ضَالَّةُ المُؤمنِ حيثما وجدَها فَهوَ أَحقُّ بِها**»[1].

ولِهذا نَجدُهُ يُوصي ـ أَوَّلاً وقَبلَ أَيِّ شَيءٍ آخَرَ ـ مَنْ يَرغَبُ بِركوبِ البَحرِ والعَملِ فيهِ، بِتَقوى اللهِ والحرصِ عَلى الطَّهارَةِ القَلبيَّةِ والجَسديَّةِ واتِّباعِ الهُدى فَيقولُ:

«ويَنبَغي أَنَّكَ إِذا رَكبتَ البَحرَ تَلزَم الطَّهارَةَ، فَإِنَّكَ في السَّفينَةِ ضَيفٌ مِنْ أَضيافِ الباري ﷻ فَلا تَغفَلْ كَرَمَهُ».

كَما قالَ في أرجوزَتِهِ «نادرَةِ الأَبدالِ»:

قَليلٌ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ أَراهُمُ عِفافٌ يَرونَ الحَقَّ خَيرَ المَآثِرِ

---

(1) العقيلي، رواه أبو هريرة، في تهذيب التهذيب، وهو منكر.

أَي: إنَّ حُبَّ العِلمِ والمَعرفَةِ، شَغَلَهُ عنْ حُبِّ النِّساءِ ومُفاكَهَتِهِنَّ وعَنِ الانشغال في مُلهياتِ الدُّنيا وشَهواتِها الزَّائِفَةِ.

ومِنْ ثمَّ يَتحَدَّثُ ابنُ ماجدٍ عَنِ الصِّفاتِ والسُّلوكِ الَّذِي يَنبَغي أَنْ يَتَوَفَّرَ في الرُّبانِ النَّاجِحِ، فَيقولُ:

«يَنبَغي أَنْ يَكونَ عَالِماً بِالأَشياءِ، عَزَّاماً فَتاكاً، عادلاً لا يَظلمُ أَحداً، لا يُغضِبُ التُّجارَ، كَثيرَ الاحتمالِ عَلَى الهِمَّةِ، صَبَّاراً مَقبولاً بينَ النَّاسِ، لا يَسعَى فيما لا يصلحُ لَهُ، أَديباً لَبيباً، وإِلَّا ليسَ هوَ مُعلمٌ بِالقاعِدَةِ».

ولِهَذا يَحضُّ في أرجوزَتِهِ المَرءَ إِنْ أَرادَ أَنْ يُصبِحَ ربَّاناً ماهِراً وناجِحاً عَلى السَّهرِ والتَّدقيقِ ومَشورَةِ أَهلِ العِلمِ والصَّبرِ وكتمانِ السِّرِّ فَيقولُ:

تَأَمَّلْ وشاوِرْ واسهَرِ اللَّيلَ واعزمْ وحَقِّقْ ودَقِّقْ واحفَظِ السِّرَّ

واصبِرْ وأَجمِلْ ما سَمعتَ لِتَسلَم لِتَبقَى رَئيساً في الرِّجالِ مُقَدَّمَا

يَرى بَعضُ المُستَشرقينَ أنَّ كُتُبَ ابنِ ماجدٍ تَربو عَلى الأَربعينَ كِتاباً، وأَشارَ آخرونَ إِلى أَنَّها بِحدودِ الثَلاثينَ، مِنها:

- كِتابُ الفَوائِدِ في أُصولِ علمِ البَحرِ والقَواعِدِ.
- حاويَةُ الاختصارِ في أُصولِ عِلمِ البِحارِ.
- فَصلٌ في مَعرفَةِ دَيرَةِ القِطبِ مِنْ رؤوسِ بَرِّ العَربِ.
- فَصلٌ في مَعرفَةِ البَلدَةِ إِذا كانَ مِنْ داخِلِ البابِ (بابِ المَندَبِ).

ـ فَصلٌ في مَعرفَةِ البَلدَةِ عَلى جاه عَشرةٍ.

ـ فَصلٌ في أَرضِ جوزرات.

ـ ومَجموعَة فُصولٍ أُخرى تُعتَبرُ مِنْ أَهمِّ ما كُتبَ في مَطلَعِ القُرونِ الوسطَى في علمِ المِلاحَةِ البَحريَّةِ، هذا فَضلاً عَنِ الأَراجيزِ والقَصائِدِ الشِّعريَّةِ في هَذا المضمارِ، ومنها:

ـ قَصيدةٌ في علمِ البِحارِ.

ـ الأُرجوزَةُ الهاديَةُ في علمِ البِحارِ.

ـ أُرجوزَةُ قبلَةِ الإِسلامِ في جَميعِ الدُّنيا.

ـ القَصيدةُ المَكيَّةُ.

ـ أُرجوزَةٌ في عدَّةِ الأَشهرِ الرُّوميَّةِ.